[٥]

## وفى المغرب: غواية الفرنسة والتنصير

وعلى الجبهة المغربية.. وبعد فشل الحملة البونابرتية على مصر والمشرق العربى.. شرعت فرنسا الكاثوليكية فى غزو الجزائر سنة ١٨٣٠م..

وعندما ثبَّت الجيش الفرنسى أقدامه على أرض الجزائر، ذهب ملك فرنسا «شارل العاشر» [١٧٥٧ - ١٨٣٦م] إلى الكنيسة -بباريس- ليشكر ربه على احتلال الجزائر المسلمة!.. واستقبله مطران باريس، وخطب فى حضرته، فقال:

**«إننا نحمد الله على كون الملة المسيحية قد انتصرت نصرة عظيمة على الملة الإسلامية، ولازالت كذلك»!**(١).

● وعندما احتفلت فرنسا العلمانية - نعم العلمانية!- بمرور قرن على احتلالها للجزائر، أقامت المهرجانات الصاخبة - على أرض الجزائر سنة ١٩٣٠م-.. وفيها خطب أحد كبار الساسة الفرنسيين، فقال:

**«إننا لن ننتصر على الجزائريين ماداموا يقرؤون القرآن ويتكلمون العربية، فيجب أن نزيل القرآن من وجودهم، وأن نقتلع العربية من ألسنتهم»!**

وخطب أحد كرادلة الكنيسة الكاثوليكية الفرنسية، فقال:

**«إن عهد الهلال فى الجزائر قد غبر، وإن عهد الصليب قد بدأ وسيستمر إلى الأبد. وإن علينا أن نجعل أرض الجزائر مهدا لدولة مسيحية تضاء أرجاؤها بنور مدنية منبع وحيها الإنجيل»!**(٢).

وهكذا اقترن التنصير بالغزو فى إفريقيا.. كما اقترن به فى آسيا.. وبواسطة العلمانية الفرنسية، كما هو حاله مع الصليبيين الإسبان والبرتغاليين.. **فأمام الإسلام الكل صليبى حتى النخاع!..**

---

(١) رفاعة الطهطاوى [الأعمال الكاملة] حـ٢ ص٢١٩. دراسة وتحقيق: دكتور محمد عمارة طبعة بيروت سنة ١٩٧٣م.

(٢) دكتور محمود قاسم [الإمام عبد الحميد بن باديس الإمام الروحى لحرب التحرير الجزائرية] ص ٢٢، ١١- طبعة دار المعارف- القاهرة.

● وعلى هذه الجبهة المغربية، ألقى الاستعمار الفرنسى شباك الغواية لقطاعات من الأمازيغ -الذين حمل آباؤهم وأجدادهم الإسلام والعربية -لغة القرآن الكريم- وخدموهما ونشروهما عبر قرون التاريخ الإسلامى -بل وأقاموا بهما منارة الحضارة الأندلسية التى بددت ظلمات الكهانة الكنسية فى أوربا-!..

ألقى الاستعمار الفرنسى حبال الغواية إلى قطاعات من «نابتة» الأمازيغ، الذين ضُربت عقولهم فى مصانع الفرانكفونية، فأخذوا يدعون لاستبدال الفرنسية بالعربية -تحت شعارات أمازيغية عنصرية-.. ويفتحون بعض الجهات الأمازيعية للمنصرين الكاثوليك، الذين يريدون استبدال النصرانية بالإسلام!..

ولقد نسى هؤلاء المخدوعون أن تعايش اللغات -كل اللغات: أمازيعية.. وكردية.. وفارسية.. وأردية.. وسواحيلية.. إلخ -إلى جوار العربية- لغة القرآن الكريم والشريعة- إنما هو آية من آيات الله، سبحانه وتعالى: ﴿**وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ**﴾ [الروم: ٢٢].. وأن الأممية الإسلامية قد احتضنت وتحتضن كل ألوان التنوع والتمايز والاختلاف.. **فقط الواحدية والأحدية للذات الإلهية، وما عدا الذات الإلهية ومن عداها، من كل عوالم الخلق والفكر، قائم على التنوع والاختلاف، فى إطار أممية الإسلام، الذى جعل هذا التنوع والاختلاف سنة من سنن الله وآية من آياته التى لا تبديل لها ولا تحويل..**

●●●

لقد أرادت فرنسا أن تصنع بالعرب المسلمين فى شمال إفريقيا ما صنعه البروتستانت بشعوب أمريكا-الهنود الحمر- إبادة الجنس والهوية فأعلنت:

**«إن شمال إفريقيا سيكون مهجرا ومستوطنا للشعوب الأوربية. وأما سكانه الأصليون فسيُدفعون نحو الجنوب، إلى الصحراء الكبرى، إلى أن يفنوا هناك.. وإن الجزائر ستصبح بلدا جديدا، يتدفق إليه الفائض من السكان ومن نشاط أبناء فرنسا..»!**

وفى عزمها على سحق الهوية العربية، أعلنت:

**«إن أهم الأمور التى يجب أن نعنى بها قبل كل شىء هو السعى وراء جعل اللغة**

**الفرنسية دارجة وعامة، بين الجزائريين، وبين الذين عقدنا العزم على استمالتهم إلينا، وتمثيلهم بنا، وإدماجهم فينا، وجعلهم فرنسيين».**

لقد أرادوا فصل الإسلام عن العربية، حتى لا يربط الإسلام الأمازيغ بالأمة العربية، وفصل العقيدة عن الشريعة - مع أنهما رئتا الإسلام - وذلك حتى ينتقل الأمازيغ من اللهجات الأمازيغية - غير المكتوبة- إلى اللغة الفرنسية.. وحتى ينتقلوا من «الأعراف المحلية» إلى القانون الفرنسي، فتنفك روابطهم مع العروبة، ومع كامل الإسلام.. فإذا أصبح القانون فرنسيا.. وأصبحت اللغة فرنسية، فقد تم الفصل التام بين الأمازيع وبين أمتهم وهويتهم!

وفي إعلان هذا المخطط:

● كتب الكاتب الفرنسي «فيكوربيكيه» -في كتابه ]العنصر البربري[- الصادر سنة ١٩٢٥م:

**«إن كل مجهوداتنا يجب أن تنصب على تعليم البرابرة الفرنسية، بلا واسطة لغة أخرى، لقد هيأنا سنة ١٩٢٣م للمدرسة برنامجا فرنسيا بربريا له روح فرنسية كاثوليكية.. وهذه خطة حسنة لوقف التعامل مع اللغة العربية على أنها لغة التفاهم.. ويمكننا بسهولة كتابة البربرية بالحروف الفرنسية -كما فعلنا بالهند الصينية-..**

**وإذا لم يمكننا عقد الأمل على رجوع البربر عن الإسلام، ونبذهم لهذا الدين، لأن جميع الشعوب لا تبقى بدون دين في مرحلة تطورها، فيجب أن لا نخشى من ذلك، خاصة إذا تمكنا أن نفصل بين الإسلام والاستعراب.. وفصل الدين عن القانون المدني، مثلما حدث بإدخال تغييرات مهمة سنة ١٩١٧م في قانون الأحوال الشخصية.. ولذلك يمكننا أن نحصر الإسلام في الاعتقاد وحده.. وعلى هذا لا يهمنا كثيرا أن تضم الديانة الشعب كله، أو أن آيات من القرآن يتلوها رجال بلغة لا يفهمونها.. فالديانة الكاثوليكية تستعمل اللغة اللاتينية والإغريقية والعبرانية في قداديسها»!..**[1].

● وكتب «جورج سوردون» -أستاذ الحقوق في معهد الدروس العليا «بالرباط»- في كتابه [مبادئ الحقوق العرفية المغربية] - الصادر بالرباط سنة ١٩٢٨م- يقول:

(١) [الأقليات بين العروبة والإسلام] ص ٥٨، ٥٩.

«يجب جمع العادات البربرية، لئلا تضمحل فى الشرع الإسلامى.. إذ العرف ينمحى إزاء القانون.. والأولى أن نرى العرف البربرى يندمج فى القانون الفرنسى من أن نراه يندمج فى القانون الإسلامى، لأن الأسلحة الفرنسية هى التى فتحت البلاد العربية، وهذا يخولنا اختيار التشريع الذى يجب تطبيقه فى هذه البلاد»![1].

● وأصدر المقيم العام الفرنسى فى الغرب «المارشال ليوتى» أمره إلى وزارة العدل بالعمل على استبعاد اللغة العربية، لأنها الرباط الذى يربط البربر بالإسلام وأمته.. والعمل على الانتقال بالبربر من البربرية إلى الفرنسية، لأنه:

«من الخطأ الفاحش التصرف بشكل يساعد على إعادة إحياء العلاقة بين العرب والبربر، ولا حاجة لنا فى تعليم العربية للبربر، فالعربية هى رائد الإسلام، لأن هذه اللغة تُعلَّم من القرآن، ومصلحتنا هى أن نمدن البربر خارج دائرة الإسلام، وأما ما يتعلق باللغة، فيجب علينا أن نضمن الانتقال مباشرة من البربرية إلى الفرنسية بدون واسطة»![2].

● ووجهت «الإقامة العامة» الفرنسية - بالرباط- مذكرة إلى الحكومة الفرنسية- فى ١٣ يونيو سنة ١٩٢٧ تقول فيها:

«إن مبدأ استقلال العرف البربرى ودوائر اختصاصه عن الشرع الإسلامى، يحقق أكبر مصلحة سياسية لفرنسا، وإن إبعاد الشرع الإسلامى من جميع بلاد البربر بشكل نهائى ومطلق يسمح لنا، فى يوم قد لا يكون بعيدا بإنشاء نظام معقول للعدلية البربرية فى اتجاه فرنسى خالص»![3].

● وفى ١٦ مارسة سنة ١٩٣٠م، صدر «الظهير -المرسوم» البربرى.. ليحل الأعراف والعادات المحلية محل الشرع الإسلامى، حتى فى المواريث والأحوال الشخصية-الأسرة- وذلك دمجا للعرف البربرى بالقانون الفرنسى، بدلا من الشريعة الإسلامية»[4].

●●●

---

(١) [الأقليات بين العروبة والإسلام]. ص٥٧.
(٢) المرجع السابق. ص٥٨.
(٣) المرجع السابق. ص ٦٢.
(٤) المرجع السابق. ص٦٣.

ولقد أدت تطبيقات الاستعمار الفرنسى- ببلاد المغرب العربى- لهذه «الغواية» المفروضة «بسيوف الفتح الاستعمارى»، إلى تخلّق قطاعات فى الأوساط الأمازيغية، سقطت فى شباك هذه الغواية الاستعمارية..

فعلى الرغم من استنفار هذا المخطط -وخاصة منذ صدور «الظهير البربرى» سنة ١٩٣٠م- روح المقاومة الوطنية، المدافعة عن عروبة الشعب- أمازيغه وعربه- بالعروبة والإسلام- إلا أن قطاعات من المثقفين الأمازيغ، الذين تغربت لغتهم وهويتهم، قد سقطوا فى شباك هذا المخطط..

ولقد عبر الأديب الجزائرى «مولود معمرى» عن هذا الاتجاه المنسلخ من تراث العروبة والإسلام فقال:

**«إن التراث العربى الإسلامى قد تم تجريده من كل المصادر الحية للوجود.. إنه شكل فارغ، وهو فى أقل الأحوال سوءا مجرد ديكور عبث ولعبة خاوية. وإن المنجزات التى تحققت فى العهد الاستعمارى وألوان الرقى المادى والتقنى التى تسبب فيها مكّن الثقافة الهامشية أو المتعرضة للهيمنة (مثل البربرية) من الأدوات الحاسمة لتحريرها»**[1]..

- ومن غرائب الأمور نمو هذا التوجه الفرانكفونى بين الأمازيغ بعد تحقيق هذه البلاد لاستقلالها السياسى، وفتور الحمية الوطنية المعادية للاستعمار المباشر.. ولقد أقامت «جامعة فانسان» الفرنسية سنة ١٩٧٦م «الأكاديمية البربرية» لتنفيذ هذا الاتجاه.

●●●

لكن الرد على هذا المخطط الاستعمارى، والجهاد ضد الغواية الفرانكفونية، قد جاء -ليس فقط من الزعامات العربية الأصل- وإنما من العلماء والمجاهدين ذوى الأصول الأمازيغية..

- فالإمام عبد الحميد بن باديس [١٣٠٧ - ١٣٥٩هـ ١٨٨٩- ١٩٤٠] - وهو أمازيغى الأصل قد قال: **«إن الحق فوق كل أحد.. وإن الوطن قبل كل شىء.. وإن الجزائر بلد عربى.. وهى أرض مسلمة..**

**وهذه الظاهرة التاريخية تظل صادقة تمام الصدق.. وإن هذه الأمة الجزائرية الإسلامية ليست هى فرنسا، ولا يمكن أن تكون فرنسا، ولا تستطيع أن تصير فرنسا**

(١) [الملل والنحل والأعراق] ص١٨١.

ولو أرادت.. بل هى أمة بعيدة عن فرنسا كل البعد، فى لغتها، وفى أخلاقها، وفى عنصرها وفى دينها.

وإن الرابطة التى تربط ماضينا المجيد بحاضرنا الأغر ومستقبلنا السعيد، رابطة هذا الحبل المتين، هى رابطة اللغة العربية، لغة الدين، لغة الجنس، لغة القومية، لغة الوطنية المحروسة.. إنها وحدها الرابطة بيننا وبين ماضينا وأجدادنا الغر الميامين، تربط أرواحهم بأرواحنا، وهى وحدها اللسان الذى نعتز به، وهى الترجمان عما فى القلب من عقائد وما فى العقل من أفكار وما فى النفس من آلام وآمال..

إن العرب قد رشحوا لهداية الأمة، وإن الأمم التى تدين بالإسلام وتقبل هدايته ستتكلم بلسان الإسلام، وهو لسان العرب.. فينمو عدد الأمة العربية بنمو عدد من يتكلمون لغتها، ويهتدون مثلها بهدى الإسلام..

ونبى الإسلام، محمد ﷺ كان رسول الإنسانية.. ورجل القومية العربية والأمة العربية فى آن واحد..

وإذا قلنا: العرب، فإننا نعنى هذه الأمة الممتدة من المحيط الهندى شرقا إلى المحيط الأطلنطى غربا، والتى تنطق العربية وتفكر بها، وتتغذى من تاريخها، وتحمل مقدارا عظيما من دمها، وقد صهرتها القرون فى بوتقة التاريخ حتى أصبحت أمة واحدة. هذه الأمة العربية تربط بينها -زيادة على رابطة اللغة- رابطة الجنس، ورابطة التاريخ، ورابطة الألم، ورابطة الأمل. فالوحدة القومية والأدبية متحققة بينها لا محالة.. والوحدة السياسية بين شعوبها المستقلة استقلالا حقيقيا.. تمكن.. وتجب..

وإن من تكلم بلسان العرب فهو عربى وإن لم ينحدر من سلالة العرب

ومن الحق على من يدين بالإسلام ويهتدى بهدى القرآن أن يعنى بتاريخ العرب ومدنيتهم وما كان من دولهم وخصائصهم قبل الإسلام، وذلك لارتباط تاريخهم بتاريخ الإسلام، ولعناية القرآن بهم، ولاختيار الله لهم لتبليغ دين الإسلام وما فيه من آداب وحكم وفضائل إلى أمم الأرض..

وكما اختار الله العرب للنهوض بالعالم كذلك اختار لسانهم ليكون لسان هذه الرسالة وترجمان هذه النهضة، ولا عجب فى هذا، فاللسان الذى اتسع للوحى الإلهى لا يضيق أبدا بهذه النهضة العالمية مهما اتسعت آفاقها وزخرت علومها..

وإن رسول الإسلام، الذى هو رسول الإنسانية هو رجل الأمة العربية، الذى نهتدى بهديه، ونخدم القومية العربية خدمته، ونوجهها توجيهه، ونحيا لها ونموت عليها، وإن جهل الجاهلون.. وخدع المخدوعون.. واضطرب المضطربون..

شعب الجزائر مسلم وإلى العروبة ينتسب
من قال حاد عن اصله أو قال زاغ فقد كذب[1]

هكذا تحدث ابن باديس - الأمازيغى الأصل- والإمام الذى أعاد الجزائر إلى العروبة والإسلام.. ومزق شباك الغواية الاستعمارية التى سقط فيها بعض «نابتة» الأمازيغ!..

●●●

● وعلى هذا الدرب، سار الزعيم التاريخى للثورة الجزائرية أحمد بن بلا -وهو أمازيغى الأصل - فقال:

«إن الثقافة البربرية تختلف فى وجوه مهمة عن الثقافة العربية.. وقد عاشت البربرية واستمرت طوال أربعة عشر قرنا محافظة على كيانها.. وهذا يعنى أن لها وظيفة اجتماعية تؤديها.. ولا أرى ضررا فى ذلك، ولا مانع من تنمية هذا الإرث والمحافظة عليه، بشرط ألا يتناقض ذلك مع أساسيات فى الجزائر.. **فلا يعنى المحافظة على البربرية إلغاء العربية، أو محو عروبة الجزائر.. والعروبة عندى -كما عند الكثيرين- هى لغة وثقافة، وليس سلالة أو عنصرا.. فنحن جميعا -فى المغرب الكبير- أصلا من البربر، ولكن أغلبيتنا أصبحت عربا، بحكم تبنى اللغة العربية والإسلام.**

**والخلاصة: هى أننى أؤيد المطلب البربرى الثقافى، ولكنى أرفض مقولة بعض البربر التى تذهب إلى أن العروبة «استعمار» مثلها مثل الاستعمار الفرنسى.. وأنا أحذر الإخوة البربر دائما من مغبة انزلاق المطلب البربرى إلى حظيرة أجنبية!..**

---

(١) انظر [آثار ابن باديس] جـ٤ ص١٧-١٩، ٢١. وجـ١ مجلد ٢ ص٣٩٨-٤٠٠، جـ٢ مجلد ٢ ص١٧-٢١. تحقيق: دكتور عمارة الطالبى طبعة الجزائر سنة ١٩٦٨م. وصحيفة [الشهاب] عدد نوفمبر سنة ١٩٣٧م وصحيفة [البصائر] عدد ٢٢ يونيو سنة ١٩٣٩م. ودكتور محمود قاسم [الإمام عبد الحميد ابن باديس] ص١٣. وكتابنا [مسلمون ثوار] ص٤٧٣-٤٧٦. طبعة دار الشروق. القاهرة ٢٠٠٦م. وكتابنا [الإسلام والعروبة] ص ٢٠٥- ٢٤١ -طبعة دار الشروق سنة ١٩٨٨م.

والأقليات دائما مهيأة لمد يدها للشيطان الخارجى إذا ما شعرت بالخطر الداهم، وهذا يحدث عندنا كما يحدث عند غيرنا، ولذلك فبقدر ما أحذر الإخوة البربر من الوقوع فى حظيرة الأجنبى بقدر ما أريد تحذير المسئولين العرب فى الجزائر وغيرها من دفع أى من أشقائنا فى الوطن للوقوع فى هذه الحظيرة..

هناك فرنسيون -وخاصة من الرهبان- ولهم مآرب أخرى فى تأييد وإذكاء البربرية وأنا لا أتهم أى جزائرى فى وطنيته - سواء كان عربيا أو بربريا- ولكن مطالب بعض الفئات المشروعة تُستغل أحيانا بواسطة قوى أجنبية، ويصدق عليها عبارة على بن أبى طالب «حق يراد به باطل»[1].

تلك شهادة البطل الوطنى والقومى أحمد بن بلا -وهو فضلا عن دوره الوطنى والقومى واحد من أعلام «الوعى الحضارى» فى العصر الذى نعيش فيه..

- وعلى ذات الدرب.. درب الوعى بمخططات الغواية الاستعمارية لقطاعات من أبناء الأمازيغ، لإيقاعهم فى شباك تفتيت أمتهم - حيث يتجه العالم إلى التكتلات - على هذا الدرب سار المجاهد المغربى -الوطنى والقومى- الفقيه محمد البصرى - وهو الآخر من أصل بربرى- والذى قال:

«أنا من أصل بربرى.. ومع ذلك فإن تاريخى النضالى- على مدى أربعين عاما- قد ارتبط بالوطنية المغربية والقومية العربية..

لاتوجد مسألة بربرية بالمعنى السياسى الحقيقى للكلمة.. فالبربر مندمجون تماما فى مجتمعهم، بسبب الرابطة الإسلامية وبسبب التزاوج المستمر.. والمشكلة فى نظرى -هى مشكلة مصالح اقتصادية وسياسية، ومشكلة ديمقراطية.. فالذين يثيرون «المسألة البربرية» -مثلما هو الحال فى الجزائر مثلا- يفعلون ذلك حفاظا على مصالحهم الاقتصادية والوظيفية فى جهاز الدولة والإدارة الجزائرية، وهؤلاء بربر منطقة القبائل الذين «تفرنسوا» لغة منذ وقت طويل، ومن ثَمّ مكّنهم الاستعمار من شغل كثير من المواقع.. ومع استمرار موجة التعريب بات هؤلاء يشعرون بالخطر على مصالحهم، فرفعوا شعار الثقافة البربرية حينا وشعار الثقافة الجزائرية حينا فى مواجهة التعريب والثقافة العربية..

---

(١) [الملل والنحل والأعراق] ص١٨٦.

وفى الواقع، إن من يدعو إلى ثقافة بربرية، فى مواجهة الثقافة العربية، ينتهى -موضوعيا- إلى الدعوة إلى الثقافة الفرنسية، حتى عن غير قصد، فحيث إن البربرية لغة غير مكتوبة، ولا يوجد لها تراث مكتوب، فإن المناهضة للعروبة والعربية ستنتهى حتما إلى الأخذ بإحدى اللغات العصرية الأخرى، ولما كانت الفرنسية هى الأقرب والأقوى، وهى المتاحة على أى الأحوال، فإن هؤلاء الدعاة سيأخذون بها.. ومن هنا، ليس صدفة أن فرنسا هى المشجعة الأولى والرئيسية لحركة الثقافة البربرية..

وإذا كان لى -كبربرى- أن أختار لغة وثقافة غير بربرية، فالعربية هى اختيارى، فهى اللغة الوطنية، وهى لغة الإسلام، وهى وسيلتى إلى تراث العرب والمسلمين.. ووسيلتى إلى مستقبل قومى عربى مشترك بين بقية الشعوب العربية..»[1].

●●●

إن البربر هم الذين نشروا الإسلام والعربية فى المغرب الكبير.. وهم الذين قادوا الثورات الوطنية ضد الاستعمار.. وهم الذين جاهدوا لإعادة أقطار المغرب الكبير إلى أحضان العروبة والإسلام، فى مواجهة الفرنسة والتغريب.. ولقد كان البربرى عبد الكريم الخطابى [١٣٩٩ - ١٣٨٢هـ ١٨٨٢- ١٩٦٣م] أسطورة العروبة والإسلام فى الثورة ضد الاستعمارين الإسبانى والفرنسى فى المغرب العربى الكبير.. كما كان ابن باديس هو إمام الوطنية والعروبة والإسلام.. ولقد تولى قيادة التعريب للجزائر - عقب الاستقلال- ثائر بربرى، هو مولود قاسم..

وهكذا لم تعم بلوى الغواية والخيانة.. بل كانت النشاز، الذى تواجهه وترفضه أصوات العقلاء الحكماء.. حدث ذلك على الجبهة المغربية كما حدث على الجبهة المشرقية سواء بسواء.

●●●

(١) الملل والنحل والأعراق. ص ١٧٠، ١٧١.